حاجة الإنسانية إلى الإسلام

إن الإنسان آية الله في خلقه ، طبعه ربه على هذا النحو العجيب وفطره على هذه الصبغة الفذة ، مقترنة بعديد من الغرائز والميول ، وحينما تشده الأولى إلى زكاة النفس ، واستواء الفطرة ، وقصد السبيل ، فإن الثانية تشده إلى النقيض تماما بتمام ، وبين هذا وذاك يتطلع الإنسان ويرنو إلى ما يحفظ عليه نقاء معدنه ، وصفاء جوهره ، وزكاة نفسه ، وطهارة قلبه ، واعتدال خلقه ، وقصد سلوكه ، ويجعله على طول الخط سَوِيَّ المنهج ، قويم السبيل زكي الباعث ، نبيل المقصد ، متعلقاً بمعالي الأمور ، نائياً عن سفاسفها ، يتطلع إلى ذلك ويهفو إليه ، فلا يجده إلا في رحاب الإيمان بالله ، وأحضان الطاعة له ، وظلال القرب منه .

والإنسان بفطرته لا يملك أن يستقر في هذا الكون الهائل ، فلابد له من رباط معين بهذا الكون ، يضمن له الاستقرار فيه ، ومعرفة مكانه في هذا الكون ، الذي يستقر فيه[1] ، فلابد له إذن من عقيدة تفسر له ما حوله ، وتفسر له مكانه فيما حوله ، فهي ضرورة فطرية ، شعورية ، تقوم بالتأصيل لجوهر الفطرة ومتابعة بعثها ، لضمان استمرار حركتها وعملها وانطلاقها .

ومن هنا : كانت حاجة الإنسان إلى العقيدة حاجة فطرية مركوزة في فطرته ، ومغروسة في شعوره ، ومخلوطة بدمه وعصبه ، ولكنه قد يضل عن إدراك هذه الحقيقة ، فيشقى ويحار ، ويفقد الاستقرار[2] .

هذه الحاجة الفطرية في الإنسان إلى الدين ، هي التي يتحقق بها إدراك الإنسان

---

(١) د . أحمد السايح ، العقيدة في الإسلام ، مجلة (جوهر الإسلام) العدد الثاني والثالث ، ص : ١٦ ، من السنة الثانية ١٣٩٦هـ ، تونس .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

لحقيقة مقامه في هذه الحياة ، ورسالته وعمله ودوره[1] .

وقد أودع الله – سبحانه وتعالى – في الإنسان ما يستطيع به إدراك الحقائق الكبرى في الوجود[2] . وندبه الله – سبحانه وتعالى – للقيام بمهمة التعرف على هذه الحقائق التي يراها الحس والعقل والوجدان ، في الآفاق وفي النفس ، وفي كل شيء[3] . ففي الأرض آيات للمؤمنين ، وفي السماء مثلها وأعظم . فالفطرة الإنسانية السليمة هي التي تتوجه إلى الكون بروح متفتحة تكشف ما فيه من قصد وتصميم وإبداع ، وتنتهي إلى إدراك مكانها من هذا الوجود وتحديد كيفية سلوكها فيه ، ومن خلال هذا التصور تتحدد علاقة الإنسان بربه – عز وجل –[4] .

فالإنسان لا غنى له عن الدين ، لأنه يحسه في نفسه ، شعوراً ووجدانا ويشير إلى هذا الشعور ما رواه أبو هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « **مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَة** »[5] .

وقول الله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[6] .

---

(١) أحمد محمد جمال ، الدين فطرة وميثاق ، كتاب ندوة المحاضرات لموسم حج سنة : ١٣٨٩هـ ، ص : ٢٠٠ ، ط : رابطة العالم الإسلامي ، بمكة المكرمة .

(٢) قال تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ . سورة النحل ، آية : ٧٨ .

(٣) قال تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد** ﴾ سورة فصلت ، آية رقم : ٥٣ .

(٤) د . عبد الكريم عثمان ، معالم الثقافة الإسلامية ، ص : ١٦ ، ط : الثالثة مؤسسة الأنوار بالرياض ، سنة : ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م .

(٥) رواه البخاري ، في مواضع من صحيحه مع فتح الباري ، جـ :٣ ، ص : ٢١٩ .

(٦) سورة الأعراف ، الآيتان رقم ١٧٢ ، ١٧٣ .

ففي هذه الآية : بين الله – تعالى – أنه أخرج من صلب آدم وبنيه ذريتهم نسلا بعد نسل ، على هيئة ذر ، وذلك قبل خلقهم في الدنيا وأشهدهم على أنفسهم قائلا لهم : ﴿ **ألست بربكم** ﴾ فأجابوا: ﴿ **بلى شهدنا** ﴾ بذلك ، فالله – سبحانه وتعالى – أشهدهم على ربوبيته ، حتى لا يقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين ، أو غير عالمين[1] .

فالإيمان بالله فطرة فطر الناس عليها ، وإنما يضلون عنها بعض الوقت أو كل الوقت ، ثم يعودون إليها ولو عند فراق الحياة ، أو عند نزول الكوارث والأحداث ، فقد كان فرعون يدعي الألوهية ، ويقول لقومه ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[2]. وسام بني إسرائيل سوء العذاب ، وكفر بموسى ، وإله موسى ، ولكنه عندما أدركه الغرق ، قال : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[3] .

والمشركون بالله ، والكافرون به ، في كل الأجيال ، كانوا يعبدون الأصنام ويستقسمون بالأزلام . فإذا مَسَّهم الضر في البر أو في البحر ، لجأوا إلى الله يدعونه ويسألونه النجاة ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾[4] .

ومن هذا يتبين : أنه يوجد في طبيعة تكوين الإنسان استعداد فطري لمعرفة الله وتوحيده ، فالاعتراف بربوبيته متأصل في فطرة الإنسان ، وموجود في أعماق روحه ، فقد أنشأهم الله على الاعتراف بالربوبية له وحده . « فالاعتراف بربوبية الله وحده ، فطرة في الكيان البشري ، فطرة أودعها الله الخالق في هذه الكينونة ، وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته . وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة ، فالتوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر ، وخالق البشر ، منذ

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، جـ : ٣ ، ص : ٥٠٠ – ٥٦٠ .

(٢) سورة النازعات : آية رقم ٢٤ .

(٣) سورة يونس ، آية رقم ٩٠ .

(٤) سورة يونس ، آية رقم ١٢ .

كينونتهم الأولى »[1] .

والوجود كله عابد بطبيعته ، منصاع لوظيفته ، لا يسعه إلا أن يطيع ربه في ولاء لا يشوبه استنكاف ، ولا يطاوله كائن ، بل إنه جميعاً من أعلاه إلى أسفله يهتف في البداية بلغة المقهور أمام عظمة القاهر ، وهتاف العابد تجاه قدسية المعبود بما سجله الحق في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[2] .

والإنسان وإن كان يساوي الكون في العبادة بفطرته ، فإنه ينبغي عليه أن يفوقه منزلة ، وأن يعلوه فيها درجات ، تتناسب وتركيبه ، وتكوينه المتميز بالعقل والإرادة ، والاختيار ، والميول ، والنزعات ، والرغائب ، بيد أن الإنسان من طبعه أن ينسى أحياناً ، وأن يغفل أحيانا ، وأن يجحد أحياناً ، وأن يكفر ، لأن امتزاج الروح بالجسد ، وانشغال الإنسان بمطالب جسده ، وبمطالبه المختلفة ، التي تستلزمها حياته في الدنيا ، وعمارة الأرض ، قد جعلت من معرفة الإنسان بربوبية الله ، واستعداده الفطري للتوحيد ، عرضة لأن تطمره الغفلة ، ويغمره النسيان ، ويطويه اللاشعور في أعماقه ، ويصبح الإنسان في حاجة إلى ما يوقظ هذا الاستعداد الفطري ، ويبعد عنه النسيان ، ويبعثه من أعماق اللاشعور ، فيظهر جليّاً واضحاً في الإدراك ، والشعور ، ويتم ذلك عن طريق تفاعل الإنسان مع الكون[3] وتلك فطرة فطر الله الناس عليها ، وصبغة صبغهم بها ، لافكاك لهم منها ، ولا شذوذ لهم عنها .

فعاطفة التدين أو الاعتقاد بدين من الأديان أمر غريزي ، ومشترك بين الناس عامة في كل عصر ومكان ، فإنه لم تخل جماعة من الناس في أي زمان من عقيدة

---

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، جـ : ٣ ، ص : ١٣٩١ .

(٢) سورة فصلت ، آية رقم ١١ .

(٣) د . محمد عثمان نجاتي ، القرآن وعلم النفس ، ص : ٤٧ ، بتصرف يسير ، طـ : دار الشروق ، بالقاهرة ، سنة : ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

دينية على نحو ما – « وقد أثبت التاريخ أنه قد وجد في الماضي السحيق جماعات إنسانية من غير فلسفات وعلوم وفنون ، ولكن لم توجد قط جماعة إنسانية من غير دين »[1] إذ لابد في حياة الناس من نظم تلم شتاتها ، وترفه حياتها ، وتضمن لها أسباب النهوض والتقدم ، ويعيش الناس في ظل هذه النظم على قواعد الحق والعدل ، في أمن وسلام ، وقد كرم الله الإنسان بالعقل لكنه أودع فيه نفساً أمارة بالسوء ، وهو يعيش في صراع بين عقله الهادي إلى الصلاح ، ونفسه الأمارة بالسوء ، فكان من تمام نعمته عليه أن وضع له النظم التي توصله إلى التغلب على النفس ، وسد منافذ الشيطان إليها ، فحمله أمانة التكليف ، وأخذ عليه العهد بأن يعبده ولا يشرك به شيئا ، وأمده بهداية الرسل – عليهم الصلاة والسلام –[2] .

إذن « لكي تتحقق الحكمة الإلهية في خلق الإنسان ، ويتبين المصداق الحق لقوله تعالى إرشادا للملأ الأعلى : ﴿ .. قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ .. ﴾[3] لابد لقوة الخير في الإنسان من مدد يُعينها ويغريها على سَدِّ منافذ الشر والطغيان »[4] .

ومن هذا يتبين : أن الدين للإنسان من الشئون الضرورية التي لا حياة له إلا بها[5] . والله – سبحانه وتعالى – قد خلق الناس ، ولم يتركهم وشأنهم بل اختار لهم نظما وأحكاما تسعدهم في الدنيا والآخرة ، وذلك لأن الإنسان عاجز عن إدراك المغيبات ، ويتأثر تفكيره بمؤثرات من الزمان والمكان والمجتمع وهو

---

(١) د . محمد يوسف موسى ، الإسلام والحياة ، ص : ٧ ، ط : مكتبة وهبة بالقاهرة سنة : ١٣٨٠هـ – ١٩٦١م .

(٢) د . شوكت محمد عليان ، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر ، ص : ١٢٦ ، ط : دار الرشد ، بالرياض ، سنة : ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .

(٣) سورة البقرة ، آية : رقم ٣٠ .

(٤) محمود شلتوت ، من توجيهات الإسلام ، ص : ٩ ، ط : مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، سنة : ١٣٧٩هـ – ١٩٥٩م .

(٥) المصدر السابق ، ص : ١٤ .

عاجز عن حمل غيره على طاعته ، لعدم قدرته على القهر الذي يرغم الناس على كمال الطاعة ، ولهذا جعل الله – سبحانه وتعالى – في كل أمة رسولا منها ، وأيده بالمعجزات ، وأمده بتعاليم السماء ، لينشر الخير ويعالج الشر ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1] ، وقد شرع الله – تعالى – لخلقه ما يناسب حالهم ، ويتلاءم مع ظروف حياتهم ، وقوة إدراك عقولهم ، وقوة احتمالهم[2] .

وإذا كان الدين والتدين أمراً غريزيا وفطرياً في الإنسان، في كل زمان– كما عرضنا– فإن الدين الإسلامي هو : الدين الحق الذي رضيه الله –تعالى – للناس جميعا . والآية الكريمة التي عدت الدين عند الله الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾[3] . تعني : مجموعة المباديء الإسلامية وتعاليم الإسلام ... فالإسلام مر بمراحل كبيرة عبر أنبياء الله ورسله إلى أن انتهى إلى المرحلة المتكاملة في رسالة محمد – عليه الصلاة والسلام – التي جاءت إلى الإنسانية كلها . إذن رسالة الإسلام هي الإسلام الشامل للإنسانية في وحدة إيمانها بالله ، قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا.. ﴾[4] ولهذا كان الإسلام يشتمل على امتداد زماني في الفكر الديني ، يعرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غايتها ، ويشتمل على شمول موضوعي يغطي مجالات الحياة جميعا ، ويشتمل على شمول يضم الأديان كلها ، ويدعوها إلى تصحيح معتقداتها »[5] .

فالديانات وإن تعددت في الفروع والتكاليف والأعمال ، فقد اتحدت في

---

(١) سورة النساء ، آية رقم ١٦٥ .

(٢) د . شوكت محمد عليان ، الثقافة الإسلامية وتحديات العصر ، ص : ١٢٧ .

(٣) سورة آل عمران ، آية رقم ١٩ .

(٤) سورة المائدة ، آية رقم ٣ .

(٥) د . أحمد السايح ، الفضيلة والفضائل في الإسلام ، ص : ٣٠ ، ط : مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، سنة : ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م .

المصدر الذي صدرت عنه ، وهو الله – تعالى – واتحدت – أيضاً – في الأصل الذي دعت إليه ، وهو التوحيد ، فالقدر المشترك بين الرسالات جميعا هو : تصحيح العقيدة أولا ، ثم معالجة الأمراض الخلقية والاجتماعية الموجودة في تلك البيئات ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[2] وقال تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾[3] .

ولقد جاء الإسلام في جانبه الإيماني ، يؤكد هذه الأسس ، التي أكدها كل نبي ، ولكنه في الجانب الذي يستتبع الشريعة ، جانب الالتزام والعمل كان الإسلام الفصل الأخير في تكامل التشريعات .

وهذا الطابع الشمولي الملتقي في أسس العقيدة ، والمتكامل في التشريع هو الذي جعل من الإسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة أبد الدهر ولعل هذا هو السر الذي جعل من الإسلام كلمة تختص بالدين الذي جاء به رسول الإنسانية محمد ﷺ[4] .

وكلمة الإسلام ، وفي الإطار اللفظي تعني : التسليم والخضوع ، وفي مفهوم الدين يراد منها ، التسليم والخضوع لله وحده ، لا شريك له ، وبهذا المعنى أطلقت على كل من آمن بالله ، وسلم الأمر لله ، فأتباع كل نبي ، وكل من يدين لله من الأديان السماوية ، هم مسلمون بهذا المعنى[5] .

---

(١) سورة النحل ، آية رقم ٣٦ .
(٢) سورة الأنبياء ، آية رقم ٢٥ .
(٣) سورة الشورى ، آية رقم ١٣ .
(٤) د . أحمد السايح ، الفضيلة والفضائل في الإسلام ، ص : ٢٨ – ٢٩ .
(٥) المرجع السابق ، ص : ٢٩ بتصرف .

ووحدة الإيمان حقيقة تفرضها وحدة المصدر بصورة قاطعة ، لا تقبل الجدل ، أو التشكيك ، ولا يغير من واقعها وجود فواصل البعد الزمني بين الأنبياء ، الذين أرسلهم الله إلى عباده[1] .

فالإيمان بالله – سبحانه وتعالى – ليس غريزة فطرية ، بل هو ضرورة ، فالدين عنصر ضروري ، والإنسانية بحاجة إليه ، للكمال النفسي والروحي ، فالإنسان جسم وروح ، والجسم يتغذى بالطعام والشراب ، بينما تتغذى الروح بالإيمان والعقيدة ، وعلى ذلك فالإسلام منهج شامل لأمور الدنيا والآخرة ، محقق لمصالح الفرد والجماعة ، قوامه الشريعة والعقيدة والأخلاق ، فليس دينا فقط ، ولكنه دين ونظام وحياة ، لا تنفصل فيه العلاقة بين الله والإنسان ، عن الصلة بين الإنسان والإنسان ، وهو ينظمها جميعا[2] .

فالعقيدة الإسلامية ضرورة للإنسان ، وذلك لرفع مستواه والمحافظة عليه من الانحراف المادي والإلحادي .

ومن القواعد المقررة أن الإنسان مدني بطبعه ، ومعنى ذلك أن الإنسان بفطرته يميل إلى التعارف والتعايش مع غيره ، ولذلك جعل الحق – سبحانه وتعالى – التعارف بين الناس من أهم أسباب خلقه لهم ، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[3] هذا التعارف ليس مقصودا لذاته ، وإنما جعل أولا غذاء لطبيعة الإنسان ، وثانيا : وسيلة للتعارف على كل ما فيه إسعاد البشرية ، وتحقيق حياة أفضل لأفرادها في جانبها المادي

(١) د . يوسف القرضاوي ، العبادة في الإسلام ، ص : ١٨ ، ط : المكتب الثقافي ، بالقاهرة .
(٢) أنور الجندي ، منهج الإسلام في بناء العقيدة والشخصية ، ص : ٢٩ ، ط : دار الاعتصام بالقاهرة .
(٣) سورة الحجرات ، آية رقم ١٣ .

والفكري ، وبين ذلك المفكر محمد عبد الله دراز ، فيقول : « إنه لا قيام للحياة في الجماعة ، إلا بالتعاون بين أعضائها ، وهذا التعاون إنما يتم بقانون ينظم علاقاته ، ويحدد حقوقه وواجباته ، وهذا القانون لا غنى له عن سلطان نازع ووازع يكفل مهابته في النفوس ، ويمنع انتهاك حرمته[1] .

وعلى ذلك نستطيع أن نقرر – دون أن نجانب الصواب – : أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافيء قوة التدين ، أو تدانيها في كفالة احترام شرع الله وضمان تماسك المجتمع ، واستقرار نظامه ، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه والسر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات الحية بأن أفعاله وأعماله الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره ، ولا يوضع في يده ولا في عنقه ، ولا يجري في دمه ، ولا يسري في عضلاته وأعصابه ، وإنما هو معنى إنساني روحاني اسمه الفكر والعقيدة . وقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع ، وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية ، بل يتأثران بها »[2] .

وليست قوانين الجماعات ، ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة ، تحترم فيها الحقوق ، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل فإن الذي يؤدي واجبه رهبة من السوط أو السجن ، أو العقوبة المالية لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون .

والقانون إما إلهي أو وضعي : لأن كل حضارة شطران : شطر روحي ، وشطر مادي ، فالشطر المادي الذي يعتمد على الحس والعقل وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالشطر الروحاني أو النظر ، والشطر النظري : العقيدة والأخلاق ، والتشريع ، ونظام المجتمع[3] ولذلك جاءت العقيدة الإسلامية كاملة هادية للعقل في الجانب النظري ، فشملت التشريع ، والأخلاق ، ونظام المجتمع ، ومن

---

(١) د . محمد عبد الله دراز ، الدين ، ص : ٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص : ٩٨ .

(٣) د . عبد الحليم محمود ، الإسلام وتنظيم المجتمع ، ص : ٥ ، ط : دار الكتاب العربي ، بمصر .

خصائص الوحي فيما يتعلق بالتشريع : أنه هاد للعقل ، وكما أن الدين هاد للعقل ، كان لابد في استخدام العلم من رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية ، وعمارة الأرض ، لا إلى نشر الشر والفساد ، ذلكم الرقيب هو : العقيدة والإيمان .

ولا يخفى على أهل العلم : أن من الخطأ المبين أن يظن بعض الناس أن في نشر العلم والثقافات وحدها ضمانا للسلام ، والرخاء ، وعوضاً عن التربية والتهذيب الديني والخلقي[1] ذلك أن العلم سلاح ذو حدين ، يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح للبناء والتعمير[2] فكما يستعمل للخير ، يستعمل كذلك للشر ، فلابد للعلم من تربية عالية ، وتوجيه سديد ، وإيمان راسخ يوجه المجتمع ، وذلك أن وظيفة العلم محصورة في الجانب الحسي المحض فهو يقف عند حدود لا يتجاوزها ، بينما وظيفة الدين بالحياة ذات مجال رحب . فالإسلام بما حواه من هداية إلهية وتشريعات سماوية يكفل للمجتمع الإنساني كل عوامل السعادة ، والأمن ، والاستقرار ، ولا يكون ذلك عن تشريع وضعي ، يضعه فرد ، أو جماعة معينة ، ذلك لأن الإنسان مهما سما فكره ونضج عقله ، لا يمكن أن يحيط بكل ما يوفر للإنسانية أمنها واستقرارها .

لقد بين الله – سبحانه وتعالى – بالدين الإسلامي ، وهو خاتم الرسالات الإلهية ما هو حق وخير في جميع شئون الحياة فهو لم يترك الإنسان سدى ، بل بين له الرشد من الغي ، ووضعه على الجادة الصحيحة والطريق السوي ، فيما يختص بالعقيدة والسلوك الفردي والاجتماعي ، والعلاقات التي تربطه بغيره من الناس جميعاً ، فالدين الإسلامي فيه صلاح للناس جميعا حتى الذين لم يرزقوا حظا وافرا من التفكير العقلي السليم ، ولذلك كان الوحي الإلهي رحمة عامة لجميع الناس ، ولهذا نرى الدين ضرورة اجتماعية كما هو فطرة إنسانية ، ونراه كفيلا بصدور صاحبه في أقواله وأعماله عن عقيدته ، وضميره ونفسه ، وعن مراقبته

---

(١) د . محمد عبد الله دراز ، الدين ، ص : ٩٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص : ٩٩ .

لله في السر والعلن ، لا خوفا من الناس ، أو عقاب القانون الوضعي ، هذا العقاب الذي يفلت منه الكثير من الناس[1] .

والله الذي خلق الإنسان ، وركب فيه طبائعه ونوازعه ، هو الخبير بكل علله ، وأدوائه ، والعليم بوسائل شفائه ، هو وحده الذي يقدر أن يضع للجماعات الإنسانية من الشرائع والنظم ما يحقق لها أسباب السعادة ، وجميع وسائل الأمن والاستقرار ، وذلك بالدين الذي يدعوه إليه ، فهو السلطان المهيمن على نفوس المؤمنين به ، وبحمله على الأخذ بتعاليمه ويدفعهم إلى القيام بما سنه لهم من تشريع وتنظيم ويدفعهم إلى التحلي بالفضائل ، ويحول بينهم وبين ارتكاب الرذائل ، وليس هناك وراء الدين شيء يهيمن على النفوس ، غير نظام خالق النفوس[2] .

فالإسلام نظام رباني ، يقوم على مبادىء سياسية ، رضيها الله لعباده دستورا يقودهم في دنياهم إلى حياة كريمة ، ويعدهم في أخراهم لميراث جنة عرضها السموات والأرض .

فالإسلام هوالرابطة التي جمعت البشرية على الإيمان بالله واليوم الآخر ذلك أن القصد من الدين ليس إلا تزكية النفس ، وتطهير القلب ، وظهور روح الامتثال والطاعة ، واستشعار عظمة الله ، وإقرارالخير والصلاح في الأرض ، على أساس قوي متين ، من ربط العْبد بخالقه[3] .

فهو إذن مطلب إنساني ، رفيع يغذي جانب الروح ، ولا ينسىَ حاجة العقل ، وبعبارة أخرى : هو مطمع العقل ، وغاية الروح ، وبجانب ما للدين من وظائف نفسية تجعل منه غذاء ضروريا لقوى النفس ، وعصارة مقومة لحيويتها توجد له

---

(١) د . محمد يوسف موسى ، الإسلام والحياة ، ص : ٨ .

(٢) د . محمد حسين الذهبي (الدين والتدين) دراسة بمجلة البحوث الإسلامية جـ : ١ ، ص : ٥٤ الصادرة سنة ١٣٩٥هـ - ط : دار الإفتاء والبحوث بالرياض .

(٣) محمود شلتوت ، من توجيهات الإسلام ، ص : ١٨ .

وظائف اجتماعية ، لا يكون موضوعها الفرد ، وإنما يكون موضوعها المجتمع ككل[1] .

وهكذا يتبين للباحثين والدارسين : أن العقيدة الإسلامية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية ، في ملكاتها ومظاهرها . ومن هنا تنبع حاجة البشر إلى الدين من طبيعة الإنسان نفسه ، فقد خلقه الله – تعالى – ومنحه طبيعة الكائن المتكيف ، وعلى ذلك فحاجة الإنسانية إلى الدين نزعة فطرية وأصيلة ركبت فيه ، وفطر عليها ، ولذلك يكون الدين هو الرقيب الذاتي داخل النفس ، يدفع الإنسان إلى مراقبة الله ، الذي يعلم السر وما تخفي الصدور فيكون دافع الدين والاعتقاد شاملاً لجميع القوى المختلفة : الجسمية ، والروحية والنفسية ، والخلقية والاجتماعية .

وبعد هذا العرض ، يمكن للإنسان أن يستوضح وظائف الدين وحاجة البشرية إليه .

فالدين يزكي النفس ، ويطهرها ، ويقيم في حواسها الوازع القوي الذي يحول دائماً بين الإنسان ، وبين نوازع السوء والضلال فيه ، وذلك أنه يشعر دائماً بمراقبة الله له في كل شيء ، ومن هنا تزكو نفسه بفعل الخير وعمله ، والبعد عن الشر ، وهذا مبلغ ما ينبغي أن تسعى الإنسانية إليه .

فالإنسانية بحاجة إلى الدين ، لأنه جزء من فطرة الإنسان وطبيعته ولا يمكن لإنسان عاقل أن يستغني عن جزء من فطرته وكيانه ، فهو الوسيلة الوحيدة التي نأمن مخاطرها ، ونضمن نتائجها ، لتحقيق الحياة الإنسانية ... فالدين يقوم نظاما يدعو إلى الفضيلة واعتناقها ، كما يقيم دستورا حكيما يحفظ للإنسان إنسانيته ، كما يحفظ له نفسه وماله .

---

(١) د . محمد عبد الرحمن بيصار ، العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع ، ص : ٩٢ ، ط : الرابعة ، الأنجلو المصرية ، بالقاهرة .

وكما أن حاجة الإنسانية إلى الدين لحفظ النفس ، والمال ، والعرض ، كذلك فإن الإنسانية في حاجة إلى الدين ، لتربية الإنسان الذي كرمه الله – تعالى – فقال :﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1] وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[2] .

وعلى ذلك فإن احتياج الإنسانية عقيدة وسلوكا نزعة فطرية ، وأصيلة ركبت فيه ، وفطر عليها . ومن هذا المنطلق يصف القرآن الكريم الدين بأنه الحياة وبأنه النور الذي يضيء للسالك الطريق ، قال تعالى :﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[3] .

فالعقيدة تقوم من المجتمع مقام الروح من الجسد ، ولسعادة المجتمع لابد له من العقيدة الصحيحة ، التي تنير الطريق ، وتحدد أسلوب معاملة الفرد للجماعة ، والجماعة للفرد .

ولقد كان لهذه العقائد والأصول والمباديء الإنسانية ، التي قام الإسلام عليها ، ولما قام عليه هذا الدين من المساواة والعدالة والإحسان ، كان لذلك أثر بالغ في سرعة انتشاره ، وحسن تقبل الناس له في أقطار العالم المختلفة ، كما كان ذلك من العوامل الحاسمة ، والأسباب القوية ، فيما أدركه الإسلام من عز ، ومجد وسلطان ، سعد به العالم الذي عاش تحت لوائه[4] .

فمن طبيعة المنهج الذي يرسمه هذا الدين ، ومن حاجة البشرية لهذا المنهج

---

(١) سورة التين ، آية رقم ٤ .

(٢) سورة الإسراء ، آية رقم ٧٠ .

(٣) سورة الأنعام ، آية رقم ١٢٢ .

(٤) د . محمد يوسف موسى ، الإسلام والحياة ، ص : ٢٥ .

نستمد يقيننا الذي لا يتزعزع في أن المستقبل لهذا الدين المتعطشة إليه البشرية جمعاء[1] .

فالعقيدة هي أساس قيام المجتمع ، وأساس صلاحه أو فساده ، بل هي أساس بقائه واستمراره ، فهذا الدين في حقيقته النقية المصفاة ، له أثره المبارك في تهذيب النفس ، وإسعاد الإنسان ، وتوجيه الحياة وجهة الحق والخير ...

إن الدين ضرورة من ضرورات الإنسانية الراشدة ، لا تغني عنه فكرة عقلية ولا تنظيم وضعي[2] قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۞ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[3] .

لقد كان الإنسان في الماضي يعبد ما لا ينفع ، ولا يضر ، وكان يخاف من كل شيء ، فجاء الدين الحق ، ودعا الناس إلى التحرر من خوف غير الله وما عداه مخلوقا من المخلوقات ، وبهذا تغيرت نظرة الإنسان إلى كل شيء .

إن العقيدة الإسلامية تقوي الاتصال بالله ، وتبعث في الناس اطمئنانا يقوي عزيمة المؤمن ، فلا يصل إلى نفسه اليأس ، ويتغلب على مصاعب الحياة بقوة الإنسان .

وإن الباحث : إذا تأمل أحوال الإنسانية في هذا العصر ، فسوف يجد أنها في أمس الحاجة إلى الإسلام .

فالحضارة الغربية وصلت إلى أعلى مستوى من الرقي العمراني ، والتقدم العلمي الهائل ، ولكن قصة البشرية – برغم التقدم الحضاري – فيها مساويء كثيرة ،

---

(١) سيد قطب ، المستقبل لهذا الدين ، ص : ١١٤ ، ط : السادسة ، الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية ، مطبعة الفيصل ، سنة ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

(٢) محمود شلتوت ، من توجيهات الإسلام ، ص : ٢٣ .

(٣) سورة النساء ، الآيتان : ١٧٤ – ١٧٥ .

زلت فيها أقدام البشر ، وضاعت عقولهم . فقد أطلقت الحضارة الغربية حرية الإنسان ، وحررت غرائزه المكبوتة ، وتحولت الحريات إلى انحراف في الغريزة ، وإلى شذوذ في الطبيعة ، وإلى عدوان على حريات الآخرين ، ونتيجة لهذه الحرية لم يعد هناك ضابط أو متصرف .

ومن تعاسة الحضارة المادية ، أنها عكست كرائم النعم ، والملكات التي أنعم الله بها على الإنسان عكسا أسقط الإنسان في وديان الهلاك والدمار وسقط بالإنسانية دون عالم الحيوان ، فراجت خسائس العادات ، وذمائم الصفات من الاختلاط الفاضح ، والشذوذ في السلوك ، وظواهر الخنفسة والهيبز ، والارتخاص ، والابتذال ، والخلاعة[1] .

لقد تقدمت العلوم بلا ريب ، ولكن هذه الحضارة التي علمت الناس كيف يسبحون في الماء بالغواصات الجبارة ، وكيف يطيرون في الفضاء ، وفي الهواء ، وفوق السحاب ، عجزت حتى اليوم عن تعليم ناسها وشعوبها كيف يسيرون على الأرض في طريق الخير بغير عوج والتواء ، أو تعثر .

إن الغرب اليوم في حيرة بالغة ، وقلق واضطراب شاملين ، وكل ذلك يأخذ عليهم عقولهم وقلوبهم ، وأصبح الضمير هناك لا يطمئن إلى عقيدة أو مبدأ أو نظام فلم يعد يجد اليقين الذي يفيء إلى ظله ، في جو من الهدوء والراحة والاستقرار[2] .

والبشرية اليوم في مفترق الطريق ، فهناك اضطراب في الأفكار وحيرة في الاتجاهات ، وزعزعة في النظم ، وخواء من العقيدة ، أصبح يجرفها دولة بعد دولة ، وشعبا بعد شعب ، إلى هاوية المادية وعلى كل فقد وقع المحذور ، وانصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها ، وبكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة ،

---

(١) د . أحمد عبد الرحيم السايح ، أضواء على الحضارة الإسلامية ، ص : ١٩١ - ١٩٢ ، ط : مكتبة دار اللواء بالرياض ، سنة : ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

(٢) د . محمد يوسف موسى ، الإسلام والحياة ، ص : ٢٦ .

ووجهة نظر ، ونفسية ، وعقلية ، وأخلاق ، واجتماع ، وعلم ، وأدب ، وسياسة ، وحكم ، وكان ذلك تدريجياً ، وكان أولاً ببطء وعلى مهل ، ولكن بقوة وعزيمة فقام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية ينظرون في الكون ، نظرا مؤسسا على أنه لا خالق ولا مدبر ، ولا آمر ، وليس هناك قوة وراء الطبيعة ، والمادة تتصرف في هذا العالم ، وتحكم عليه ، وتدبر شئونه ، وصاروا يفسرون هذا العالم الطبيعي ، ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكي بحت ، وسموا هذا نظريا علميا مجردا[1] .

وليس الحال في الشرق ، والبلاد العربية بأحسن حالا منها كثيراً في الغرب ، فقد انحرف الكثير عن الدين في غير قليل من شئون الحياة[2] فقد تأثرت بعض المجتمعات بالغزو الحضاري الغربي ، وليس ذلك التأثير في الجانب العلمي والصناعي والعمراني ، ولكن – للأسف – وفي أسوأ المساويء وأصبح البعض يقلد الغرب في كل ما هب ودب ، وما من ظاهرة من الظواهر العفنة ، ولا موضة من موضات العصر ، إلا ولها في بعض المجتمعات صدى واهتمام .

لقد أفلست الحضارة الغربية ، برغم التقدم العلمي الهائل الذي وصلت إليه ، وبدأ الإنسان الأوربي يهرب من حضارته ، لأنه لم يحس في ظلها بالسعادة ، ولم يحس في مجتمعه الأمن والأمان والاطمئنان ، فقد انتشرت عصابات القتل ، والخطف ، والتخريب ، والإرهاب ، وتفاقم خطر الجريمة ، وازداد عدد المجرمين ، وامتلأت البلاد بجماعات العربدة والفجور وأقيمت نوادي العراة وأبيح في غير استحياء الشذوذ الجنسي ، إلى غير ذلك .

وأخيرا لهذا وغير هذا : لجأ الغربيون إلى الهروب من معتقداتهم الدينية ، ومذاهبهم الاقتصادية ، بل من كل حضارتهم التي افتتنت بالعلم والعقل ،

---

(١) أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ ، ص : ١٧٨ ، ط : دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة : ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م .

(٢) د . محمد يوسف موسى ، الإسلام والحياة ، ص : ٢٧ .

سبحت شقية عمياء لا تبصر ، طارت بحضارتها إلى الفضاء ، وانحدرت سباب الغربي إلى مدارك السفالة والانحطاط ، ليعيشوا في حياة الجنس والخمر ، ادي العراة .

والشيوعية في الشرق وفي الغرب قد أعلنت فشلها ، وبات الناس في جحيمها ن جوعا ، ويبكون توجعا ، ويتألمون من شدة الكبت ، وفقدوا كل كرامة ل شيء .

وهكذا يهرب الأوربيون من نظمهم الوضعية ، ويهرب الشيوعيون من جحيم شتراكية .

وهكذا تعجز النظم البشرية ، والقوانين الوضعية ، عن تقديم أي عون سان ، أو الأخذ به إلى الطريق السليم ، مما يؤكد ضرورة الإسلام للمجتمعات سانية ، لأن الإسلام قد انطوى على طاقة روحية جعلت منه – عند التطبيق – فعالة ومؤثرة ، بل إن فاعلية الإسلام شملت حياة الأفراد ، وحياة الجماعات جميع الجوانب .

***